الرجل الكئيب

قصة بقلم مطاع صفدي

[أخي .. هات كأسك وتعال معي]

كان الشارع نحيلا يهرب أمامي . في فمي دخان مر ، وقطرات من المطر التائه ، تنسفح على جبيني ، وتتلوها فكرة معروقة تتلاشى إثر القطرة .. ينبغي أن أسير . إنني أعرف كيف أتفادى الوجوه. في شارعي هذا لا أحد يهتم بأن يكون آخر يراه . إنهم سريعو الخطى ، تجذبهم أهداف عجيبة ولاشك . إنهم أصحاب أهداف .! ولكن لابد أن تملأ يداي جيوب سروالي . وأنفث الدخان الذي احتقنت به أوداجي ورئتي بدل الدم .. جميل أن يبدل الدخان عن الدم ، أو الدم عن الدخان. كان تكون عينا هذا العابر ذي الهدف ، تلتهمان أفق الشارع كيما ينتهي ، عند باب ، عند ثقب في حجر المدينة الأصفر المصطف من هنا الى مالا نهاية ، من هذا الحجر الذي أدوسه ، وتنزلق عليه قدماي ، كان المكان أشبه بحيل من نقاط متقطعة .. إنني أشعر بالهوة بين كل نقطتين ، ولكن هؤلاء المسرعين لا يشعرون .. إنهم يعبرون .. إنهم يموتون عند الأفق ..

ترى كيف أبدو .. أنا المتمهل على هذا الرصيف اللامع .. وفي الشارع النحيل ، في هذه الساعة العجيبة من الليل الصامت ؟

يحلو لي أن أعكس صورتي في خرزتي إنسان .. في عينين من وجه ما .. إنني أبحث عن صديقي الآن . لابد أنه لم يبع الليلة جريدة واحدة . البرد شديد . والناس في قوقعاتهم . لحم يتدفأ بلحم . ونفس يتعفن في نفس. إنهم ملتصقون ، ولكن عقولهم صريعة في صحراء التعب السرابي .

لقد كان يمد إلي بجريدتي . وترتعش العيون الحزينة . وابتسامة القناعة الباهتة تشقق شفتيه الجافتين .. حتى من ريق الصبر المفقود .

وعندما تتلاقى عينانا كان يرى نهاري ، وأرى نهاره ، تحت لهاث الكهرباء الحكومي المعلق فوق رؤوسنا ، وما أفجعه من لقاء !

لقد كنت ضميره ، وكان ضميري . ولكل منا ذنوبه النهارية.ومن الغريب أن الشفاعة كنا ندفعها لبعضنا بثمن بخس : كنت أشتري جريدة ، وكان يتلقف فرنكاً واحداً ..

وهذه الليلة لن أرى عينيه . إن الأضواء المعلقة فوق رؤوسنا أصبحت زرقاء ، إنها أدمة لليل ، ذات لون أشد كآبة .. مني . ما زلت أبحث عن هيئتي في عيني إنسان ..

عندما خرجت منذ شهر، من الماخور، كان علي أن أمر من هنا لأشتري جريدتي .. وأرى وجهي ، لقد ارتجفت يدي آنذاك يا صاحبي وأنت تناولني جريدتي .. نعم إنني مصلوب ، ولكن الليل طويل .. وكيف أقضيه .

ومن خلال رعشة اليد القذرة ، قرأت نفسي بين حروف قاتمة كبيرة كعاقة جهنم المسودة بدخان حريقها : هجوم ثلاثي على مصر . وعند ذلك طلبت مني لأول مرة، مع الفرنك القديم ، سيجارة. كنت تريد أن أدخن .. وأن تدخن أنت الى قربي في رواية التصالب هذه .

هل أحدثك .. أجل ، كان لحمها متهدلا حول هيكلها . ولكني انتظرت دوري أكثر من نصف ساعة . وكلما طال الوقت شعرت بكرامتها أكثر ..

كان الجميع خائفين . وسخرت أنا منهم . فلقد دخلت المخدع العطر وبقيت هناك عشر دقائق فقط . لم تكن بي حاجة لأن أمكث أطول . إنني أعرفها . ولكنها نسيتني .. لقد كنت أتردد عليها كل شهر تقريباً . كنت أحب ضحكتها المعجونة بالأحمر ، باللفظ البذيء ، بالغمزة العتيقة ، والدمعة العاهرة التي لا تنزل مطلقاً .

وأشعلنا الدخينتين . وظلت ابتسامتك تشقق ثغرك المعوج. وكان علي أن أقرأ العنوان .. وأنت سألتني قبل أن تنتهي الدخينة بلحظات :

– يقولون أشياء خطيرة الليلة .. ها ؟

– شيء .. أشبه بالحرب ..

– هل ستصدر الجرائد غداً .. أعني هل سأبيع في ليلة الغد ؟

– أظن ذلك .. لن يتغير شيء .. هنا على الأقل .

وفي الليلة التالية أقفر الشارع ، حتى أحسست بطعم المرارة في صدري . وخيمت كآبة موحشة كقبر كبير مفتوح . وعلقت الأضواء الزرقاء .. لقد تغير شيء إذن يا صديقي : أصبحنا لا نرى وجوهنا .. إننا هكذا أكثر اختفاء . ولكنني أملك قضية هذا المساء يا صديقي . نعم! لا تسخر . أفما أسخر أنا من « قضيتي » أكثر منك؟ إنك لا تعرفني من أنا . ومع ذلك فان هويتي لا تفوتك . كلانا مفلس .. أليس كذلك . وكلانا متسكع في دروب لا تنتهي .. وما قولك إن كنت أملك شيئاً هذه الليلة؟ لقد اعتدنا ألا نتجاذب أطراف الحديث . وكان لدي قرشي ، ولديك جريدتك .. ونرى وجهينا ، ثم أمضي أنا ، وأنت تظل تتطلع الى عابر آخر ، لا تحزمه ، ولكن ترقب طلوعه من خلف جحفل ليلي ، من السديم البارد البعيد . إنظر إلي قليلا . إنني أطول منك .. أطول من كثير من الناس ، مما جعلني أعتاد النظر من أعلى دائماً. تامل في تقاطيع وجهي .. أكثر من ثلاثين عاماً ورائي..تماماً... لا تتردد.. ولست (أفندياً) بمعنى الكلمة ، ولهذا اتفقنا من البدء أن نرفع الكلفة بيننا ..

أواه يا صديقي ، أحب أن أحدثك عن (قضيتي) . ولكن .. كيف .. كيف يمكنك أن تفهمها بدوني أنا ، بدون جملة من الحوادث أشحنها ورائي . إنها ليست حوادث تماماً . بدون عودي النحيل ، ومعطفي الأزرق ، وقبعتي بلا لون ، ووجهي الذي يسقط تحت حافتها .. نعم وأصابعي .. لاحظت ارتعاشها ، تمد إليك بالفرنك .

لقد كانت هي .. سعاد ، فتاة الماخور ، تحسب وراء تدبي امرأة . وتسخر مني صائحة بألم تفرضه على نفسها بدون مبرر .. إلا صمتي الكسول :

– أنتم المغفلين .. أيها الرجال ، لا دواء لكم إلا عندنا ، هنا حيث لا قيمة لكم أنتم .. ولا لأي من بني ادم .. أكتب علينا أن نؤوي رجالا طردتهم نساء الطهر والعفة ..

وأخيراً تندفع بي الى أرضها الملوثة بدم كل رجل صائحة :

– لا تزدني كآبة .. لماذا أنت دائماً في مأتم ؟

لقد اكتشفت العاهرة كآبتي . وأنت كذلك تعرفها بي . هذه الكآبة .. أنت ولا ريب تحس بثقلها ، وتدفعها عنك ، فلا تبتسم لي اكثر مما يتطلب سقوط الفرنك من جيبي الى جيبك .

يجب أن أدفع إليك بشيء من كآبتي يا صديقي ، إن لك منها لجزء ثقيلا ، ولكن الأضواء الزرقاء تخفيك عني ، وتخفيني عنك . وهل يمكنك أن تتذوق كآبتي دون أن ترى وجهي ؟

وأما هي فانها تتذوقها ، المرأة التي حسبتها بنت الماخور وراء دعارتي وسحنتي الساقطة .. ولو أنها رأت عيني مرة . أريدها أن تخافني حقاً !.

أود لو نتسرب إليها معاً . إنها هنا .. في . لا ترجع الى الوراء ، فسأدفع لك الفرنك .ولكن دعني أسقط عليك حجري، قليلا .. لم لا ، إنني أشتريك ..

هذه الكلمة قالتها لي سلمى .. المرأة التي اكتشفتها في كآبتي بنت الماخور ..

فلماذا لا نستمع إليها معاً .. لم يكن بيننا ثمة قيم رائعة . كانت مجرد امرأة ، وكنت مجرد رجل . بيد أنه كان بيننا كلام ، وتصالب بشري ، وبداية قضية .. قضية كآبة !

– إن أحداً لا يعلم لماذا أحبك .. هذا الإنسان المحطوط من قدميه ورأسه . عليك أن تنتبه الى فمي عندما أحدثك . لا أسمح لك قط أن تكون أكثر من عبد لكل نبرة في صوتي ، أو إشارة في وجهي .. وهل أنت بعد إلا هذا الادمان المسلول بعطشه ؟ أنت تدمني، أنت تتشرب وجهي وجسدي .. وحوادث حياتي ، وتاريخي كله .. هذه عظمتك ، أن ألمس حقارتي في حبي لك..

نحن وحدنا ياسلمى من بين الأحباء ، من يتحولون الى أفاع عندما تتلاقى رؤوسهم.. إننا وحدنا الذين تعمينا كآبتنا عن أن نرى النور في وجهينا . فهل هذا حب..أجل ! والى أشقى درجات الحب.

إسمحي لي أن انساك عندما تكونين الى قربي ، أنا أطرق بابك ، وأدخل غرفتك . وهنا العطر الصيني . والأثواب المنثورة ، والموبيليا الفاخرة ، والساعة الذهبية في صدر المخدع تعلن أن ثمة وقتاً لكل شيء .. إلا لمن ليس لهم زمان . وأرى الى الشعر الأسود الكث ، والبشرة السمراء الملتهبة . فهل هناك أروع من اطفاء النور .. فلا نرى شيئاً !

أنت واضحة يا سلمى ، واضحة الى درجة التحدي .. ومنذ أن كنا نتلاقى في المحاضرات العامة .. كان وضوحك يقول لي بوقاحة أنك تريدينني . واشتقنا معاً للقاء الأول ، وبدأ داؤنا .

لقد تجوت ، في لمحة فراشة انك عالمي الخاص الذي صبوت اليه دائماً ..

حفظت أشياء غرفتي بلحظة . من رفوف الكتب الى السرير الى الدولاب الصغير الى فوضى كل الأثاث النادر في الغرفة الكبيرة الباردة من البيت الشامي العتيق . قلت انك تكتشفينني اكتشافاً .

وبدأت بذلك ، منذ أن دلك حدسك المولع بالغريب ، علي في الحفلة .. كان بي شيء لا ينسجم وجو الحفلة .. ثم تتبعتني وأنا أجول ، وأنا أنصت الى بعض المحدثين ، ولمحت وحدتي تجول معي ، وتتساقط مع كلماتي ونظراتي . ثم لحقت بي ، وعندما تواعدنا ، كان عليك أن تهتدي الى حينا في لوابيات دمشق ، وأن تطرقي هذا الباب القصير السميك كخايفة من آل عثمان .. وها أنت في عالمي ، إنه يطل عليك من سقف الخشب ، ومن رفوف الكتب الغبراء ومن السرير القذر .. :

– أأنت وحدك هنا ؟

– نعم ..

– وفي هذا البيت الكبير .. كم غرفة يحتوي .. أواه إن له صحناً كبيراً .. ينبغي أن يكون حول الصحن في الدور الأسفل والأعلى أكثر من عشرين غرفة أو مخدع كما يقول أهل حيك أليس كذلك ؟ .. أفلا تخاف أن تسكن وحيداً في هذه الدار الأثرية .. أين أهلك ؟

– وتفرقوا في الطوابق الحديثة ..

وتقفزين الى اسئلة أخرى عن عملي واقول لك إنني محام صغير ، وأنني لم أزل في بداية مهنتي وان أمضيت فيها أكثر من عشر سنين . وتدهي جعبة الأسئلة الطويلة الكثيرة والأجوبة القصيرة الخاملة .. ويدب الملل في جو الغرفة .. ترى ماذا أتينا نفعل هنا .. ؟ هذا السؤال أغضبك جداً . كانت بداية سيئة أليس كذلك ؟ .

وفتحت درجاً ، وعبثت بالأوراق . أخرجت مجموعة الصور . ضحكت لصور طفولتي . سألت عن الوجوه الأخرى . مهدت شعرك مرات عديدة . غيرت من أوضاع جلستك أشكالا مختلفة. طلبت دخينة. ألقيت بالتعليقات على صور الجامعة وبعض الزميلات ، وصور بعض الرحلات .. وأغلقت المجموعة :

– العجيب أن صورك كلها سقيمة .. ليس لديك ولا صورة جميلة .. ترى أين تنظر عند التقاط صورة لك ؟هذا الحزن .. بل ليس حزناً .. إنه .. أشبه شيء بذنب . نعم ذنب لا قرار له تحمله معك في وجهك الطويل هذا .. السحنة المريضة ..

* * *

لقد جاء دورك يا صديقي . إن الأضواء الزرقاء المتدلية فوقك .. كان ينبغي أن تنتقل من جوفي الى جوف هذه المدينة منذ بعيد . إنها الآن متدلية فوق رأسي .. أفلا يحملها غيري كذلك ؟هذه هي أولى ملامح قضيتي .. قضية

كآبتي .. ان تتخطى وحدتي .

هذا الجدار ، الذي لا لون له ، تستند اليه بظهرك ، إنه يرتفع الى أعلى كجدار يصمد في وجه جدار آخر من الجهة المقابلة في الشارع . عملاقان من السواد المتصل بين الأرض والسماء . ونحن في الجوف . ومن الغريب أن يمتد ظلانا الى فوق ، فوق الجدارين معا. لكأن الأرض ظلا في كبد السماء . إننا ، هذه النقط الصغيرة ، تطبع في الفراغ ضمن أشكال لامتناهية من السخف البشري ، المسلح بالمزيد من القوة العذراء .

لقد قلت لك إنني بحاجة اليك هذا المساء لأقول لك عن قضيتي . أنا كئيب يا صديقي ، أتدري معنى هذه الكلمة ؟. إنني أكبر جسد، أشبه بالكون، ولكن بدون روح . إن الروح هي التي تمتص الثقل . واذا اختفت ، شعر كل جسد بثقله الحقيقي . هذه الروح هي أنت .. لا تخف فلن أرمي اليك بشيء مني ، ولكني أقف تلقاءك ، مواجهاً لك ، كهذا الجدار .. جدار الشارع تجاه جداره المقابل .. بودي لو تعرفني أكثر . ألست أنا أول من ابتسم وأدخل يده الى جيبه ؟ انني قريب منك ، ورغم الأضواء الزرقاء فثمة شيء يعانق أنفاسنا بعضها ببعض .. كالرياح المتضاربة التي تتلاقى في زوبعة .. زوبعة بدون صوت . أفلا يحق لي أن أحاربك قليلا .. إنتبه لي ، إن لدي محاولة لافتراسك .. أود لو أزيلك من تصالب الطرق .. فلا أحد غيرك يجرؤ على الوقوف هنا .. إن الناس مولعون بالأهداف ، وأنت وحدك بدون طريق .. لماذا تمد يديك ؟. واحدة محملة جريدة كأنها ثقل البشرية على صدر آدم ، **وأخرى تحمل القروش . ووجه بين اليدين ، لا يستطيع قط أن يكون الميزان . إنه دائماً مع إحدى اليدين ، تتشبث النظرات بالعروق ، عروق القبضتين . والأصابع امتدادات سحرية تعبث بالأشياء . إنها عظام . والأشياء مواد جامدة** ولكن النظرة تسيل بالإنسان صاحبها ، من الوجه الى العروق الى الأشياء ، وتضيع بعدها . فالأصابع السحرية تمتد ، تتحرك على قاعدتها ، وتقبض على جزء من الفراغ ، أو جزء من الأشياء ، وتحس بالعالم بين اللحم والعظم ، والنظرة المسعورة المنسابة بانسانها نحو خارج ، نحو تصالب الناس والأنظار والأيدي .. والشوارع .. وكل قبضة تمسك بفريستها . الأنياب هنا في الأصابع .. طويلة لينة كأرجل كاذبة لحيوان هلامي بدون شكل ، فقد قوقعته وسال على كل شيء ..

هذا الدبق الذي ينضح من حيواني ، يحيل كل الموضوعات ، الشوارع ووجوه الآخرين ، وآفاق المدينة ، وأخبارها ، ورعبها المصعوق بأصدائها .. الى نوع آخر من الدبق .. هكذا العالم : حيوان هلامي كبير ينضح بالحديد على أناسه وأحجاره .. والألسنة ، يا صديقي ، الألسنة الحربائية المتلوية .. الطويلة تلعق من حولها .. الصديد .. الصديد .. حذار من اللاعقين .. من لصوص الدبق .. حتى هذا بضاعة في المدينة . لا تتاجر بي يا صديقي . لقد خرجت إليك في ليل الرعب . وكنت أنت هدفي هذا المساء . فلم تزل لدي بقية من الحقيقة ، أود لو أنقلها إليك .

كان الماخور هذا المساء كئيباً . وكان بدون زبائن . وسعاد تركت زميلاتها وحبست نفسها في غرفتها . وجدتها مستلقية على السرير . تدخن . تنفث الدخان فوقها . لا تحس بشيء حولها . أشبه بلعبة من القش . اختلطت الألوان بين الحاجبين والأهداب والوجنات والشفاه . وبرزت السنون الطويلة ، عمر العذاب تحت زيف الحياة المستعارة .

– أهذا أنت يا أنور ؟ لن يأتي غيرك في مثل هذه الأحوال ..

– وكيف .. إني فقط أبحث عن ملجأ .. أغلقوا المقاهي ، اغلقوا دور السينما .. البلد وكر كبير صامت .. ينتظر الوحش الأسود .

– لن نأكل غداً .. أتدري . لقد كنت دائماً انتظر هذه النتيجة ..

– أية نتيجة ..

– ألست وحدك ؟. قد تملك أحياناً القذارة مثلنا .. المومسات قد تملك أسرار البلاد .. أتعلم أن لي ابنة ؟

– وما شأني بابنتك ؟

– أواه يا أنور .. كم أنت رجل أناني .. كما يقول المثقفون .. أليس هذا لفظاً ينطبق عليك ؟

– نعم .. انني أناني ..

– قل بربك .. ألا ترى الناس ، ألا تقضي أوقاتك بين البشر ؟.

– نعم إنني أجلس في مكتبي عشر ساعات .. أنام فيه ..

– ماذا تفعل ؟

– أدخن .. وأتفرج حولي .

– ماذا حولك ..

– مكتبي كله . !

– تباً لك .. إن ابنتي « أمل » لأعظم شرفاً منك .. أتدري ماذا فعلت ؟. وما شأنك أنت ، لن تفهم ..

– حسناً .. لا تصمتي هكذا ، يجب أن يتحدث أحدنا ، فقولي ما عندك.

– أمل تقضي أوقاتها في ضيعة (سمير بك) منذ أكثر من شهر .. إصغ إلي . إن ابنتي ليست مومساً مثلي ، إنها تعيش مع الأكابر . والأكابر يقبلون يدها .. إنهم يتخاطفونها من ضيعة الى أخرى ومن حضن الى اخر .. إنها تلعب عليهم جميعاً .. وتفوز باجمل الحلي .. سمير بك كان أشدهم افتتاناً بأمل . سكر مرة .. وقال لها ستصبحين قريباً صديقة أعظم رجل في هذه البلاد .. فكر في هذا يا صديقي .. كان سمير بك يحلم وهو الوزير المفلس من الوزارات منذ أن جاء هؤلاء القوم .. من هم .. رفاقك .. لست أدري ، وعلى كل حال هذا الرجل كانت تلفظه المناصب يوماً بعد يوم .. ولكنه أفضى بسر كبير الى أمل . هذا الرجل وصحبه ينوون ....

وكان أنور يصغي . كان رجلا فارع الطول . وعندما يصغي ، يميل بنصف قامته الى أمام . ووجهه النحيل يضيء بابتسامة تبتلع ملامحه ، وهذه المرة أخذ عقله يعمل بسرعة فائقة .

وخرج الى الشارع ، ورجع الى عادته .. أن يبحث عن بائع الجرائد ، وأن يقف تلقاءه لحظات ..

* * *

وعندما زارتني للمرة الثانية في بيتي الشامي .. الفتاة التي قالت سعاد انني اخبئها خلف كآبتي ، كان الوقت قبيل المغيب بنصف ساعة ، الوقت الذي يصفر فيه وجه الوجود ، وتنسل الحياة والحرارة من كل كائن ، الوقت الذي لا أستطيع أن أفوز على زمنه الشحيح إلا برفقة كأسي العصرية .. وفوجئت بها :

– أنت .؟. حسبت أنك لن تهتدي مرة ثانية الى هذا البيت ..

ودخلت الغرفة . وتصفحت كل أشيائها بلمحتها المعهودة ، وفي تطلعها ما يشبه الظمأ المكتوم ، ووقفت عيناها عند الكأس :

– أو تشرب العرق ؟. ليس هذا بغريب ، إنني أتوقع منك كل الـ.. ولكن لماذا لا تسألني أين كنت طيلة الشهرين ؟.

– لا بأس إنني أسألك ، إذا كان هذا يرضيك . أنا لا أحسب أن انساناً يمكن أن يضيع أكثر .. أو أن يوجد خارج العالم ..

وتضحك ، وتنعطف برأسها الى الوراء عدة مرات ، وتلمع الأسنان البيضاء بين كمي الورد المجرح .

– لقد قلت في نفسي مراراً إنني لن أخسر شيئاً في زيارتك ثانية .. وها أنا أرجع لأربح .. لأربح هذا .. أوه ، ما هو هذا الذي تملكه أنت هنا ؟.

– إن بيتي متحف كما ترين.. وربما كنت أنا شبحاً من اشباح ماضيه.

وتلتفت مرة ثانية نحو الكأس :

– أو تشرب وحيداً .. وبدون مازه ؟

– . . . .

– لدى الإنسان ، كل إنسان ، أسراره .. وربما كانت هذه من أسرارك .

– أنا .. لست أملك أسراراً .. إنها عاداتي .. وأنت تطلعين على بعضها بالصدفة .. إن كل شيء لا تعرفينه عني يبدو لك سراً .

ويطول الصمت هذه المرة أيضاً . وتقوم لتعبث بكتاب ، ثم تلقي به ضجرة حانقة .

– قل لي : أليس لك ما تحدث به ضيوفك عادة ؟.

– أنا .. ليس لي ضيوف .

– أتعيش منعزلا عن البشر إذن ؟.

– كلا .. ألا ترين بيتي كيف أنه في أكثر أحياء المدينة ازدحاماً ؟. إنني غارق في الزحام دائماً .

– ولكنك لا تكلم أحداً في هذا الزحام.. أليس كذلك؟

– على العكس .. إنني أحادث الكثيرين . ولكنني أظل لا أعرفهم ولا يعرفونني .. فمثلا أنت ، هل اعرفك حقاً ؟ . كلا ، فأنا أجهل حتى سبب زيارتك هذه مرة أخرى.. لقد ظننت أنك نسيتني تماماً ، كما يفعل كل إنسان بكل صدفة عابرة ..

– هل في حياتك نساء ؟

– نعم في حياتي نساء ورجال واشياء . . وبشرية كاملة لانفع لها أو لي ..

ويرتشف كلانا من قدح العرق ، بدون مازه ، ويزول اصفرار العصر ، من صحن الدار ، وتعم الظلمة شيئاً فشيئاً الغرفة . وبين الحين والحين ، تتساقط بعض الألفاظ في الفراغ . ويبقى الشخصان شبه ثابتين ، شبه نائمين ، شبه صامتين .

كانت الفتاة تتشرب تدريجياً عدواه : تحس بالبطء في كل شيء .

– كلا .. ليس بيتك هو كل شيء .. إنما أنت ، كأنك شبح ، أو على الأقل، إن حواسك تتجه نحو وجود آخر .. إنك ملول .. قل لي : أتعلم كل شيء؟. هل تعبت أنا مثلك من تحسس كل بشرة من لحم أو حجر.. أو تعرفني أنا مثلا .؟

وأنظر الى سلمى . إنها لوحة .. ولكن ليس ثمة نور حقيقي يكشف لونياتها .

– يجب أن أخبرك شيئاً يا سلمى : ما عندي حب . !

ولقد كان الظل يغمر وجهي . لم أعد أراه في المرآة المواجهة . وكان سريري يضيع في الزاوية . أمسك القدح مرة أخرى وأملأه . أرشف ناره . أحب أن ألمس هذه المرأة ..

– وهل تحسب أني أملك أنا مالا تملكه أنت ؟ إنني امرأة على الأقل . وقد مضى بالنسبة لي عهد الحب ..

ورغم أن باب حجرتي كان مغلقاً ، فان أصوات الهدير ، الأناشيد ، يقذفنا بها كل مذياع حول الدار العتيقة ، أناشيد الحرب ، تعلمها أهل بلادي أخيراً .

– ولهذا جرؤت على الخروج في مثل هذه الظروف .. لأنك امرأة ..

– أتريد أن أحدثك عن الطرق .. التي سرت فيها حتى وصلت إليك ؟.

يالها من غبية ! تريد أن تحدثني عن .. طرق .. طرقي .. أنا ، وأصداء خطواتي بين الجدران .

وطفرت الأمنية من عيون الأنثى . وبعد هذا ما نفع المقاومة ؟

– .. ليس من أحد في الشوارع ، إن المدينة كلها تقفر منذ الساعة الرابعة .

ولقد خفت عندما ابتعدت قليلا عن بيتي . تمنيت أن أعود بفعل معجزة ما . ولكني تابعت . كان القفر والصمت والطول اللامتناهي .. يزيدني رهافة ، ويقذف بي نحو العميق .. وفقدت عاداتي في المشي . لم أعد أحس أن عيوناً ورائي فتركت جسدي لحركته الطبيعية .. وأصبحت أنقل عيوني حولي .. أرى كل شيء ، اتأمل كل باب وواجهة نصف مغلقة ، ويسرني مرأى القليل من الناس الذين يفرون مطرقين .. كنت وحدي متمهلة ، رافعة الرأس يدور رأسي على جذعي الى أي جهة .. كنت فرحة .. فرحة لدرجة أنني وبخت

نفسي ! أأكون متحجرة فلا أتحسس بقضايا الناس في هذه الفترة ؟ .

وما كنت أتجه لهدف معين عندما خرجت من الدار .. ولكن فرحتي .. هذه الفرحة العجيبة .. جعلتني أشعر بأنني أملك العالم حقاً .. وأين يمكن أن أعترف بهذه الملكية إلا هنا .. عندك .. دعني أتمم أرجوك .. أحس بنشوة رائعة وأنا أتابع .. أتكلم .

أيمكن هذا ، أيمكن يوماً أن أفرح . ولكن لماذا أقول لك ذلك ، أو تعرف الفرح أنت ؟ هذا الوجه .. بدون ملامح . العيون بدون نظرات ، الفم بدون كلمات .. أواه ، أريدك أن تقول شيئاً . إن لدي فرحي .. فرحي الأول فماذا أفعل به ؟ !

ما تمنيت أن أجتمع بك ثانية بعد لقائنا الأول ههنا .. أذكر هذا جيداً فما أن أغلقت الباب خلفي .. في بيتي ، وارتميت على سريري .. حتى شعرت بالقرار الأصم يجمد وعيي : لن ألقاك ثانية ، ما أنت بالرجل .. ما أنت رجل قط . وحقرت نفسي : كيف استجبت لك ، وأنا التي كنت أقول عنك كلما صدفتك في المجتمعات : الأبله ، المعتوه ، هذه الزرافة الخرقاء ! . بدون أناقة ، يسير بين الناس مخدراً . رجل مفلس منحط . !

وكنت أراقبك مع ذلك ، فما اشتركت قط في مناقشة، إنك تستمع ، ويبدو عليك الاهتمام للحظات، ثم تنسى أين أنت ، وماذا يجري حولك ، وما كان لك نموذج بين الرجال والنساء تركن اليه .. قل لي ماذا يشغلك .. ؟

كان هذا هو سؤالي دائماً .. ومنذ أن أخذت أجول في شوارع المدينة المقفرة عانيت الصدمة يا صديقي .. لعلها صدمتك عينها .. إنها الوحدة بين الجدران ..بين الناس . إن حواسنا تنشغل بوجوههم، بأصواتهم ، باشاراتهم ، بأعمالهم .. فكيف تنشغل حواسنا .. بنا ، بنا نحن لأول مرة — عانيت الصدمة في هذه الأوقات بالذات .. إن الحقيقة تستيقظ في نفوسنا وفيما حولنا ، في الأحجار والخطوط والواجهات . هكذا إذن ، أكنت ترقب أنت حقيقتك ؟

— سلمى .. أترين إنني عاجز عن أن .. أقبلك .. ليس لدي شيء أجيبك به على اعترافك .. فما أنا إلا واحد من الجميع .

— لا تقل هذا يا أنور؛ فأنا أدرك تماماً أنك أهل لاعترافي.. لابد أن يوجد بين الناس في كل زمان من هو أهل حقاً لكل اعتراف .. أردت فقط أن تفرح معي ..

— أو أن أفرح لك ! ! « فترة صمت » لا بأس إن الفرح الحقيقي كالألم الحقيقي يا سلمى لا يمكن أن يكون له صاحب أكثر من واحد .. ولا يمكن أن يحتمله إلا صاحبه وحده .. إننا في الألم والفرح الصحيحين نكون في مطلق وحدتنا ..

— وكيف أنا فرحة والناس خائفون ؟.

— لو كنت فرحة حقاً لما أتيت إلي .. فمازلت خائفة من بين الخائفين .. كل أهل المدينة بيننا الآن . !

وبعد أن انصرفت تابعت قدح الأصيل .

ولكنك حدثتني عن كل شيء في المدينة .. وكأنك على يقين أنني أجهل مدينتك . وصفت لي صفوف الفتيان ، فرق الفتيات والنساء من كل جيل يتدربن في ضواحي المدينة . حدثتني عن دعوة شباب الاحتياط الى الالتحاق بثكناتهم ، عن حماس رجل الشارع ، عن هذه المعجزة التي يحققها الشعب وهو في أشد ساعات خوفه وعظمته،قلقه الشاق ، وتلك الثقة بالنفس لأول مرة في تاريخه .

نعم يا سلمى ، أنا أحب هذا الخوف . لأول مرة شعبي يخاف .. يخاف حقاً . هذه هي حقيقته الجديدة .. إنه اليوم وحش عرينه ..

ولكم كان حماسك يبرز حيويتك وجمالك النضر . عندما اخبرتني أنك .. وأنت كذلك اشتركت في المقاومة الشعبية النسائية . هذه هي فرحتك ولابد .. يجب أن يخلقنا هذا الخوف على كل حال . إن فيه يكتشف الكائن قيمة وجوده .. وفيما إذا كان يملك فعلا طاقة على النضال ضد الموت ..

بدأنا نخاف إذن يا سلمى . إن صدى خطواتي الوحيدة في الشوارع الليلية بدأت تتجاوب وأصداء أخرى . أحب أن يتعلموا وحدتي ، أن يشربوا من خوفي .. أحب لهم صمتي ، إنها الأمة يا صديقي ، الأمة التي تحطم قوقعة القرون السحيقة السوداء.. ولابد لها من بصيرة تستندها وتجرها نحو العالم .. ماذا سترى .. ستشلها الدهشة، وبعد سوف يجللها شحوب الخوف .. فمن هي أمتي ، وما هو العالم بالنسبة لها اليوم،العالم الذي ينهشها من كل جانب ، ويهب معها من جهة أخرى . ومن أنا لك .. إنني الذي بشرتك بالخوف ، وبالتشرد في شوارع المدينة الليلية ..

لقد مضيت عني هذا المساء . وأعلم أنك ، رغم الخوف لن تقطعي الدروب إلا على مهل ، إنك ترقبين ، إنك تنتظرين .. هذه هي حالي .. ولكن من هناك من صحراء التيه .. وحيث يجتمع الرمل والزبد ، خضم الماء وخضم الصحراء لم يعد أحد ينتظر ، لم يعد أحد يخاف ، لم يعد أحد إلا وهو تلقاء قدره ، إنهم هناك .. هناك يا سلمى يصنعون وجودهم مرة والى الأبد . ! هناك في بور سعيد ، مدينة المستقبل ! .

لقد مضى أكثر الليل يا صديقي . إنك تمد إلي يدك وفيها الجريدة المسائية البخسة . وأما انا فلا آخذها منك . إنني هذا المساء لا أعرف كيف آخذ أو أعطي . إن الظلام حولنا ، إنه خلفنا .. وراء كل جدار .. في ثقوب القاذورات . إن الديدان تعض مخالب النسور وهي نائمة على ذرواتها .. في هذه المدينة يجري بيع الإنسان بأرخص ثمن ، بالعبودية وبالكرسي .

ما زالت لدي قضيتي .. ألا يجوز أن تسرقها مني ضجات الزعيق من صفارات الإنذار . ما زلت أملكها ، وأعرف كيف أفضحها دائماً ، إنها بدون ملجأ يا صديقي .. وعلي أن أعلن عنها . وليس لدي لذلك غير الصمت ، والتسكع ، والانتظار ، انتظار الصخور لفناء الأبد على ذراتها المدببة . !

أأحدثك عنها قليلا ، عن سلمى . إنها تنوي أن تكون ذات اعتراف . ! أن تحمل سراً ، وأن تلقيه أخيراً على عاتق رجل .

أنا سوداوي ، أنا أسود . ولذلك أقول لك بكل بساطة وقحة إن سلمى زهرة بدون نسيم ينشر عطرها .

أنا أسود .. ولذلك امقتها . !

ليتك كنت تراها وهي تحاول أن تفاجئني بتاريخ حياتي .. لقد اكتشفت ولابد شيئاً هاماً ..

— أنور .. أنا أعرف لماذا أنت كئيب .. لأنك رجل غير عادي . !

وهكذا يا صديقي ،فانا كئيب لأنني لست كغيري من بني البشر ،لست نسخة عن أحد.وقد حسبت سلمى أنها عرفتني أخيراً : إنني أجر كآبتي منذ أن ولدت .. ومات أبواي وأنا دون العاشرة ، فجابهت المجهول وحيداً . واشتغلت منذ تلك السن هكذا .. لا تخف يا صديقي ، اعطني فقط هذه الرزمة من الجرائد . لقد حملتها عشر سنين كاملة .. ومددت يدي هكذا إلى كل عابر أقطع من لحمه قطعة مدورة حمراء هي الفرنك .. وألصقها على هيكلي العظمي ..

وسكنت في كل مكان لا يملك سقفاً أو جدراناً .. حتى قبلني أخيراً صاحب المطبعة ، مطبعة الجريدة التي أبيعها كل مساء ، ورضي أن أنام بين الآلات لقاء كناسة الأرض كل صباح .

وصاحت سلمى :

– وبيتك هذا . وثقافتك .. وشهادتك ؟

– أما بيتي فقد ورثته بعد أن استطعت متابعة الدراسة الليلية ونيل شهادة البكلوريا .. عندما هجره أهل أبي .. ليقيموا في الأبنية الحديثة .. كانوا أثرياء .. وماكنت أنا منهم .. أبي تزوج من امرأة حقيرة لا تناسب العائلة فلم يقبلوها ولم يقبلوني أنا ابنها .. هذه حادثة تتكرر دائماً يا سلمى في وجه الغرابة .. وإذا كان نيلي للشهادة الجامعية يعتبر عملا خارقاً أو نضالا فبئس النضال .. فكما ترين لم أزل أحمل كآبتي .. إنها ليست حملا عائلياً أو ازمة اقتصادية .. إن كآبتي هي أنا .. أنا الذي أبقى نفسي رغم كل الظروف .. الكآبة اليوم قدر إنسانية كاملة يمثلها جيل من هذه الأمة .. إنها مسألة معنى .. معنى أن نكون وان نكوّن .. وهل نحن إلا هذا الصوت النحيل في هذا الفراغ الهائل المرعب ؟.

إنها الشوارع ونحن المتسكعون ..

وتجيب سلمى بذهول أسيان :

– ولكنني الى جانبك يا أنور ، أليس لهذا معنى لديك ؟.

– لماذا الاحراج بالله عليك .. ماذا تفعلين أنت بالنسبة لي إلا أن تنبهيني الى وحدتي وكآبتي أكثر .. أنا بدون دواء .. وما أنت إلا .. المساعدة .. فهل سمعتني أستنجد .. بآخر .. ليس من آخر في هذا القعر الذي ولدت فيه ..

– ولكنك تقول الجيل كله يحمل هذا القدر .. ألا يعني هذا شيئاً من المشاركة والمساعدة .. أليس هنا انسان وآخر الى جانبه . ؟

– نعم .. ولكنهم فرادى مع ذلك ، إنهم لا يعرفون بعضهم ، إنهم كالنجوم على مسافة دائماً بين النجم والآخر .. كل مستقل بجحيمه ..

وتتشبث به سلمى ، وتطفر الدموع لاهبة غزيرة من عيونها :

– لا تحاول .. أعرف بل أؤمن أنك بحاجة الي .. لأنني أنا احتاجك .. إن الصرخة واحدة من صدرينا ، ماذا لنا غير الحب في هذا العدم ؟

– يجب ألا نهرب فنحب ..

– أهذه كلمة أم دين تأمر به نفسك ؟

– كلا إنه .. أنا .

– فمن أنت بحق الشيطان ! ؟

– . . . .

– قلها .. ما الذي يربكك هكذا ؟. لا تحن قامتك فوقي.. إنك طويل .. كالنخلة الجافة .. قلها .. ما هي .. حتى (هذه) لا تملكها .. من أنت ؟

– أنا .. أسود ! !

– إسمع .. خذ إذن شيئاً عني أنا .. أنا سوداء كذلك .. ولكني أريدك .. أريدك .. ولا مفر لك من أن تقبلني .. لقد كنت أفسر سلوكي دائماً بأنني شريرة ، خبيثة ، تسير على هدي الشيطان ، كأنني ابنة النار ، بيد أني أرى الآن تفسيراً آخر لنفسي .. سوداء ، هذه أحسن صفة تنطبق علي أنا كذلك .. لا تظن أنني أتقرب منك ، لقد بدأت أدرك حقاً معنى أن نكون فرادى ، وأن يكون كل منا أسود .. على مسافة من أسود آخر . !

كنت أعتقد وأنا صغيرة أنني أجد سلامي في القراءة ، أو ني النظر شزراً الى أهلي ومشاركة إخوتي . كنت أظن أنني قادرة على رسم مستقبلي حسب ملامح مثلي الخاص . ولهذا قبلت أن أخطب الى شاب سطحي نزق مغرور كآلاف من غيره .. هؤلاء الذين لا يملكون إلا بذلات غامقة وأحذية لامعة وشوارب مضفورة وشعر لامع .. وأحاديث مزخرفة عن أحدث مدارس الفن الشاذ والأزياء ومبادىء السياسة التجارية . ورحت أطيل من فترة الخطوبة ما أمكنني حتى استطعت أخيراً أن أجتمع بشيخ غني تزوجته بعد أسبوع واحد من معرفتي به .. وصبرت حتى توفي ..ثم أطلقت لخطتي العنان .. لقد حصلت على الشروط كلها .. ولم يبق لي إلا أن أسعد .. وهأنا أكتشف الى قربك أنني لست الا سوداء أنا الأخرى .. إنني في البداية أملك كل شيء ولا أملك شيئاً .. يجب ألا تطردني ، تلك مسألة حياة أكاد أن أخسرها . لقد قامرت بكل شيء .. من أجل هذا .. هذه الكآبة .. وأنت .. في البيت الشامي .. وراء قدحك العجيب تراقبني .. ولا تلفظ شيئاً . إنك لا تعرف حتى الرثاء ، حتى الصفعة العارمة بالغضب .. أو تغضب أنت ؟.

– لقد تبارينا إذن في سرد قصتي حياتنا .. وماذا في ذلك.. ماذا بعد ؟ . أنكون حقاً عظيمين الى هذه الدرجة ؟ إنني أشك فعلا في أنك عشت كل هذا .. أنا لا أكذبك ، ولكن الأحداث أحياناً قد تمر على سطح الوجود كهبات ريح تعبث بأديم الماء قليلا .. ولكن الجوف يبقى ملكاً ل .. للاشيء .. أهذا ما أردت أن تقوليه لي ؟. إنني أعرفه . وهو أمر تنطق به أنوثتك كلها .. ومثلك من يشبه كتلة من الصلصال يصنع منها النحات اي تمثال ثم يحطمه ويجبل من الحطام صلصالا آخر لتمثال آخر .. أأنت قابلة لكل هذه الرؤوس الحجرية . !

– . . . . وجسدي ؟

– نعم .. أشتهيه . !

* * *

عندما يتبدد التيار ويضحل النهر تنقنق الضفادع وتنشر سمفونية النشاز على الشواطىء البليدة المستنقعة في رخاوتها . فلماذا يتناقشون بربك .. قضايا الفكر ، مثل الشعب ، أضخم الفاظ يضمها قاموس القرن الأسيان . وعندما أطلع عليهم بهيئتي الصامدة ، إنهم يتثاءبون ، لقد مضى النهار . وتتأرجح الرؤوس على أبخرة النراجيل . الدوار ، وألوف من صور الحشاشين . إن العالم سديم ، وهنا أصابع تغمس أناملها المسلولة في الحمأ .. وفي أعشاش الضفادع تتلاقح الديدان .. الأرض كبيرة جداً ، وكل كائن يستطيع أن يشبث بثقبه .

في المقهى إذن كتل الرؤوس تقذف بكتل من الكلام ودخان النراجيل وسباب اللامبالاة .. إنني واحد منهم . تقترب القامة النحلية ، وتنقسم قسمين على كرسي من خشب أسود .. وتتطاحن كتل الرؤوس بالأنظار واللهجات ، ومعاني الصبر والكسل .. والبطء حتى في الموت ، وأجد لنفسي حكمة أرميها :

– وماذا سنفعل نحن هنا ؟ الصفارات ، والشوارع المظلمة .. وهم الحرب .. كل شيء يجعلنا جنوداً ، ولكن أين هذه الحرب أيها السادة . ؟

ويفخر صحفي يكتب بعملة الكلمات .. هذا الجسد الهزيل الأصفر ، شخص بدون نوم ، بدون وجه ، بدون نظرة معينة الى شيء معين ..

– لم نعد نستطيع أن نجمع أخباراً .. في هذا الوقت بالذات أغلقت موارد الرزق .. أعني الأخبار .. (ويضحك بالأسنان المدببة المقلمة) أعني موارد القناصل والسفراء .. لا أحد يعطف علينا بخبر .. ومع ذلك علي غداً أن أسود ثماني صفحات .. هذه قدرتنا أيها الأخوان .. لا تنتقدونا أرجوكم ، ليس من أحد يمدنا بمقال .. فماذا نفعل .. سؤالك نفسه يا أستاذ .

ويطل رأس الحكمة ، إنه مرتبك مصعوق بقوة مجهولة ، إنه يحس ولا ريب بالقنابل تمطر على رأسه من هناك، من بور سعيد ، بدلا من الأفكار :

– من كان يعتقد أن الغرب .. الغرب العظيم بكامل عدده ومعداته .. بعلمه وفلسفته وسياسييه يعلن الحرب علينا .. علينا نحن .. ألم أقل إن العرب أصبحوا أمة الند مقابل الغرب المنحل . !

ويفرح طالب الجامعة الساذج . إنه إنسان رقيق ولا ريب ، ولكنه يكافح كآبته بطريقة ما :

– نحن مستعدون .. لتأت الحرب الى هنا .. الى دمشق ، يجب أن تتحول بلادنا الى ساحة لنا .. كفانا فرجة .. يجب أن نكون أخيراً طرفاً في حرب ما على وجه الأرض ..

ويرتعش النائب .. إنه إنسان مكور البطن والأنف والوجدان ، إنه منعطف على جلده الأصفر !

– إن السياسة تقول غير ما تقولون . أنتم ثرثارون بسطاء ، تنفعلون بالأحداث التي تدبر أمامكم . ولا تملكون أن تردوا عليها بغير الثرثرة والاحتجاج .. في البلد .. ههنا أمامكم ، فتح جبهات وليس جبهة واحدة.. ستعلمون قريباً . !

أنظر إليه . إن وجهه يطفح بروعة المفاجأة . أرأيتم إنه يعلم دائماً أشياء أكثر منا بقليل.. هذا القليل يكفي لأن يجعله يتحكم في حريتنا. أيها السيد! أنا أعرف كيف تنجو من كآبتك .. الخونة ، الخونة أليس كذلك ، أنتم تعرفونهم من قديم .. إنكم تعاشرونهم تحت سقف واحد . كأنكم أزواج من نوع هلامي ينسكب كل واحد منكم على الآخر ثم يقلص شخصيته الى حدود قوقعته .. بعضكم عنكبوت لحشرات أخرى لها نفس قضيتكم .. القذارة ..

ويعدو الصحافي .. أمامه عما قليل مشروع قبض مبهم :

– لكل انسان وجهة نظر يجب أن تحترم ..!

ويصرخ الطالب البريء :

– ماذا تعني .. ليس في المبادئ وجهات نظر .. اليوم إما أن تكون قضية الجميع أو قضية نفسك .. أي خائن . !

– لا تلق التهم جزافاً أيها الساذج .. نحن علمنا الوطنية !

وينفث دخان النراجيل ويعم ضباب كالح الجو .. الجو بين الرؤوس ، ويهمد كل شيء في كتلة الكآبة الهلامية .

سلمى .. ينبغي أن أراك . إنني أهرب منهم . خرجت الى الشارع ،وابتلعني سكون الوجوم والانتظار مرة أخرى . أسير اليك . أنتقل من درب الى آخر. تسبقني خطواتي اليك . أمر أمام النادي الكبير . في كرشه المظلم يبتلع فضائح المدينة . هذا النادي لا يكف عن العمل حتى في ليالي الرعب . والحارس .. حارس الحي الراقي يضرب عصاه ويتبادل الذل مع سائقي السيارات الفخمة المصطفة على الرصيفين في حي النادي .. لابد أن بيتك يقع في مبنى من هذا الحي العظيم . إنني أصعد السلم الحالك .. وأقطع الطابق الأول ، كل الأبواب مغلقة ، والطابق الثاني ، وهأنا أمام بابك ثانية ..

– ماذا تفعلين . ؟

– أستمع الى سمفوني البطولة لبيتهوفن ..

– وهل أنت هاوية لمثل هذه الموسيقى ..

تأمل يا أنور . إنه عش من الرفاه ، وهي فيه اسطورة ذهبية . إنك لم تدخل في حياتك الى مثل هذه القصور . لعلهم هنا يعرفون كيف يقضون على كآبتهم ..

– لا تحتر .. إجلس حيث يحلو لك ..

– لديك مقاعد كثيرة مختلفة يا سلمى .. ولابد أن لكل منها لذة خاصة في الجلوس ..

– أتدخل الى غرفة النوم ؟

وتفتح الخزانة الصفراء ، وتختفي وراء أحد أبوابها . تغير ملابسها ..

– نفوح رائحة العرق من كل جسدك يا أنور .. أين كنت ؟ .في دن من خمر ديونيزوس ..

– ولا عجب .. ينبغي أن أسكر قبل أن أقابلك .. إنك للسكارى ..

– ها .. ها .. ها .. هذه الليلة يبدو أنك ستتكلم كثيراً ..

– أو أنني سأتحرك كثيراً .. دعيني أزور كل شبر في بيتك .. هكذا .. نعم. إنني سوف اختبيء هذه الليلة على الأقل ..

– « برعب صارخ » هل يطاردونك أنت الآخر ؟

– من هم ؟.

– لقد اكتشفوها .. والنادي .. أمامك ، إن أكثر زبائنه قد فروا ...

– أوه كلا يا سلمى.. أنا هارب، نعم .! ولكنني أريد أن أختبيء منها

– من . ؟

–كآبتي ! .

– ما أجمل هذه الكآبة .. لقد دلتك على الأقل .. على طريق بيتي هذه الليلة . لا تكن شروداً هكذا . أمامنا ليل طويل ..

– أجل . ! وماذا نفعل فيه . ؟

– ليس لك إلا أن تفرح بي ..

– أيجبك الرجال الى هذه الدرجة ؟ .

– إنني أنتقي من أحب . !

– يالله .. كم أن هذا مصدر فخر لي ..

– لا تسخر .. أعلم أن كل القيم .. حتى قيم النساء والترف ، والخمر ، والحرير والشعر الأسود ، والمصباح الأزرق ، كل هذه المتناقضات .. أتكون هي كذلك حقاً .. كل هذا على كل حال له تقدير خاص لديك .. شاذ غريب .. فلا عتب عليك مطلقاً .. كن حراً .. هنا على الأقل ..

– أواه .. وكيف بربك ، إنني لا أكاد أستطيع أن استقيم وقامتي الطويلة .

– تباً لك ولقامتك .. أهذا قرآنك . ؟ لماذا تسكر ؟ نيرون أحرق روما فلماذا لا تحرق أنت العالم.. لكل منكما قيثارته.. هو أحرق روما للحن، وأنت تحرقنا لأي شيء .. إلانك كئيب .. أسود ، طويل ، أبله .. تسكن وحدك في بيت شامي مؤلف من عشرين غرفة ، تنام في مكتبك القذر ، تسامر باعة الجرائد ، تنظر الى الناس شزراً .. وتأتي إلى عند منتصف الليل ؟ .

– مهلا .. يجب أن تسكري أولا .. ثم انظري إلي .. ثم استمعي إلي .. ثم المسيني .. مهلا ، هذه بقعة النور الصفراء من مصباح المنضدة الصغيرة ، إنه يتسلق ساقيك ويبلغ عنقك ، ولكنه لا ينير وجهك .. اقتربي مني .. إنني اتحداك أن تقتربي .. أتعلمين لماذا حرم الإله الخمر ؟ خوفاً من أن يصبح الانسان إلهاً . !

– أأنت سكران فقط ؟.

وتجمع الثوب الأرجواني ، وتتأجج باللحم الأبيض ، وتدنو منه ..

– لقد نذرت رذيلتي الكبرى لك .. إنك أحسن من يقدرها ..

– وما هي ؟

– لا شيء .. سوى أنها رذيلتي الكبرى . ألا تعلم أن لكل إنسان مشروع رذيلة كبرى ينويها منذ أن يعي فضيلة الوجود ، انه يعدها لعيده الأعظم .. قد تكون أنت عيدي أو موتي .. كلاهما سواء !.

– لقد استفدت إذن من دراستك في فرانسا .. ألم تخبريني أنك بعد أن توفي زوجك .. ذهبت الى فرانسا .. ودرست هناك سنتين. ماذا ..درست ؟ تجربة الالتحاق بمرسم لأفقر رسام ؟.

– أترى كيف سبقتك بالسكر دائماً ؟

– أنا أدعوك باسم هذا السكر وحده .. أن تكوني .. أن تكوني كل الدموع التي أحب أن أذرفها على الأرض .. إنني دموع .. ولكن ليس من

خطاب الى اختي

يا أخت تحياتي العطره
من قلب يشتاق اليك
ولأمي
وفتاتي تلك السمراء
لسعاد يا أخت تحيه
ولكل رفاقي وصحابي
مازال خطابك في كفي
يهتز ويهتز وينبض
كلمات خطابك صخّابه
بركان يقذف بالنار
ورأيت الكلمات تلاقت
كلمه .. كلمه
لتخط لشعبي تاريخاً
احمر
في لون دماء الثوار
وليرسم مستقبل شعبي
شعبي تواق يا أخت
لحياة السلم وللحب
ورأيت « المهدي » في ثوبه

الناصع كاللبن الصافي
عيناه نار وشرار
يمناه سيف بتّار
من خلفه جمع دراويش
هتفوا
« لاح الفجر »
« وبدا النصر »
« هذا « المهدي » المنتظر »
ومضى الموكب
واتى موكب
فرأيت « علياً » يتقدم
جمع الأشبال الأحرار
ولواء ابيض خفاق
في قبضته
فاذا برصاص الاعداء
رملٌ يزحف
وقذائف ترمي اشبالا
سقطوا صرعى

ودماهم سارت كي ترسم
درب الحرية في وطني
وتغيّر يا أخت المشهد
فرأيت رفاقي في موكب
وجموع رفيقاتك سارت
وسط زحام
سرب حمام
وتكاتفت الأيدي حبلا
مفتولا كذراع مفتوله
ورأيتك في تلك الساعه
كحمامة سلم بسّامه
في ثوبك لون جناحيها
في عينك تبدو اشراقه
من بسمة ثغر آمال
بيضاء ستبقى بيضاء
ورأيتك تمضين بسرعه
لكن يا أخت تعثرتِ
لا تلتفتي
فالعثرة قد ترسم دربا
لحياة لا عثرة فيها
امضي .. سيري
فطريقك ما زال طويلا .

القاهرة **مبارك حسن الخليفة**

خد أسيل عليه وأحرقه بحرقتي . !

واندلعت الفرحة الوحشية في ملامح الأنثى الظمأى الى أي انتصار مجنون :

— أنت تعس ، تملك التعاسة كلها ، اعترف بها.. قل انك لاشأن لك في الوجود ، قل أنك لا يقنعك شيء ، حتى الموت .. قل أنك حجر صوان .. يقدح بالشرر دون أن يحس حتى بحرارة احتراقه . ! احتراق الآخرين به . إنك أتيت إلي الآن لتلقي لي بهذا الاعتراف .. إنك التعاسة يا أنور ، التعاسة التي تجتر نفسها . !

وتصمت المرأة . وتنتبه حواسها ، وتجفل في مكانها . وتحملق عيناها . إنها اكتشفت أمراً ما فجأة . ومرة واحدة يتفجر النشيج والدمع والحرقة من كل عضو في جسدها :

— إخرج يا أنور بربك .. أخرج من هنا .. يا لك من متألم بدون إنسانية . إخرج .. ولاتعد .. لم أعرف أتعس منك ..

وتندفع نحو غرفة النوم :

— ما النفع .. ما النفع .. سنظل الى الأبد في البداية . !

* * *

وخرج الى الطريق المرعبة . لم تزل الأضواء زرقاء . والأرض بليلة من أمطار خريفية .. لابد أنها هطلت منذ قليل وانقطعت. ويطول أمامي ظلي . إنه يجرني نحو الزاوية .. عند تقاطع الشوارع ، هناك حيث يقف صديقي دائماً . ترى أين أنت الآن .. لقد جئتك بحصاد الليلة ..

وأنعطف نحو خمارة الحي . يخرج بصيص من شق الباب . أدخلها . ليس وراء المناضد أحد . ولكن ها هو ذا آخر سكير . إنه يغط بالنوم. وإذا أيقظته فلن يدري الى أين يذهب ..

— هات كأسي . !

ويدور الندل على نفسه بحركة مخدرة .

يطول مكوثي . يشرق الصبح . أتحرك في الطرقات الخالية . يدب الناس تدريجياً . تتصاعد الضجة من كل شيء . أدخل الى مكتبي وأقفل الباب خلفي !

— البقية في العدد القادم —

دمشق **مطاع صفدي**